Coptology

Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

لمحات إلهية في التسبحة الكيهكية

الجزء الثاني

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١١

www.coptology.org

تسبيح الكنيسة لتجسد الله الكلمة

لعل الفضل الأكبر يعود أولاً للأب القمص مينا المتوحد – قداسة البابا كيرلس السادس – أكثر من عرفته يصلي صلوات الكنيسة كلها، فهو صاحب المبدأ الذي عبَّر عنه في جملة قصيرة: "يا ابني اللاهوت كله في صلوات وتسابيح الكنيسة"، ثم ثانياً لأستاذ تاريخ الليتورجيات الشرقية في جامعة كامبريدج راكلف الذي كان يقرأ القبطية والسريانية واللاتينية واليونانية كما يقرأ أي إنسان بلغته الأصلية. فقد كان عالماً كبيراً.

وهذه الصلوات ودراستها تحتاج إلى محبةٍ حقيقية واتضاع فكرٍ، وعدم التسرع في اطلاق الأحكام مع دراسة جيدة جداً لكل ما دُوِّنَ من صلوات وأشعار بواسطة معلمي الإيمان في مصر وفلسطين وفارس واليونان وروما، فقد كان لدينا تراث جامعي، أي تراث الكنيسة الجامعة حتى القرن الخامس، ولكنه ضُرِب بالانقسام الحزين في ٤٥١ (مجمع خلقيدونية)، ثم بانقسامٍ آخر أكثر منه ضرراً، وهو انفصال الكنيسة الشرقية بكل ما لديها عن الكنيسة الغربية في القرن الحادي عشر، وفشلت محاولات الوحدة.

ولكن تحت رماد نار الانفصال **أولاً** ظلت حركات النسك والرهبنة في الشرق والغرب على صلة غير رسمية بنقل التراث النسكي، ثم دراسته وإعادة تقديمه أحياناً دون الإشارة إلى مصدره. **ثانياً** كانت هناك العودة الدائمة إلى كتابات الآباء ما قبل الانقسام، ولعل خير مثال هو شرح الأناجيل الأربعة (للقديس) توما الإكويني المعروف باسم السلسلة الذهبية الذي اعتمد فيه على مراجع يونانية كثيرة، ومخطوطات للقديس يوحنا ذهبي الفم لم تعد موجودة؛ إذ دمرت في أثناء الحروب، وظلت الترجمة اللاتينية لتوما الإكويني هي المرجع الوحيد الذي لدينا.

ما استلمناه من الصلوات والتسبيح:

لدينا كثافة لا مثيل لها في أي تراثٍ معاصر، يتمثل في اجتماع أحداث العهد القديم مثل الخروج – المن والسلوى – الماء من الصخرة، ويسبق هذا، اليوم الأول، يوم النور، الذي بعد أن تكتمل أيام الخلقة الستة ويأتي السبت، يصبح اليوم الأول هو اليوم الثامن، وهنا لا ينام الوعي الكنسي، بل يرى أن إشراق النور في اليوم الأول: "الله الذي قال أن يخرج نورٌ من الظلمة (اليوم الأول) هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (١ كو ٤: ٦). فالنور هو محور الإصحاح الأول في إنجيل يوحنا، وهو لا زال القراءة الإنجيلية شرقاً وغرباً في كل صلوات الصباح عند إشراق النور. والنور هو تجسد ابن الله (يوحنا ١: ١ وما بعده)، ولا تزال ذكصولوجيات باكر تحفظ الترتيب الكنسي القديم جداً:

"أيها النور الحقيقي الذي يضيء لكل إنسان آتٍ إلى العالم"،

ولاحظ:

"أتيت إلى العالم بمحبتك للبشر".

وفي عشية الأحد يقال[١]:

"أنرني يا الله بنور لاهوتك ..".

وفي المعقب على الإبصالية:

"ما هو هذا السر القوي:

إن الله أرسل ابنه من أجل صلاحه" (ص ٤٠).

وقبل ذلك:

"كتدبيره وحكمته العظيمة، حملته مريم،

ولم يفارق عرشه" (ص ٣٩).

النور هو اشراق الحياة (يوحنا ١: ١ – ٣)، وهو تجسد ابن الله:

"نغبط عظمتك أيتها السماء الجديدة التي على الأرض؛

---

(١) اعتمدنا على الأبصلمودية: تحقيق اقلديوس لبيب القاهرة ١٩١٧ – مطبعة عين شمس راجع ص ٣٧.

لأنه أشرق لنا منك الذي خلق السماء والأرض" (ص ٣٧).

فالتجسد له شاهد حقيقي هو والدة الإله:

"صِرتِ سماء ثانية
عرشاً لله الذي نزل من السماء
وأخذ جسداً من بطنك" (ص ٩٦).

فقد أشرق يسوع الله الكلمة:

"أشرق لنا متجسداً يسوع ابن الله
من والدة الإله،
وغفر لنا خطايانا" (٩٨).

حقيقة التجسد يعبِّر عنها الأنبا مرقس الثامن في القطعة السابعة:

"لأنه أتى ليخلصنا وصنع أفعال البشريين (البشر)" (١٢٩).

فكل ما نراه من فخامة التعبير هو محاولة إظهار السر الفائق:

"أرسلت خلاصك الذي هو يسوع
أشرق متجسداً من العذراء" (١٣٦)

ولعلنا نلاحظ هنا أنه لا يوجد تمييز كياني بين الخلاص والمخلص، فهذا هو اجتهاد المنهج الفلسفي الذي اعتمده العصر الوسيط.

ويستمر موضوع النور في ثيئوطوكية يوم الاثنين. ولكن النور لا يمكن فصله عن ألوهية الرب:

"فليشرق فينا نور لاهوتك العظيم كل حين،
أيها المسيح إلهنا .. ارحمنا ونجنا يا يسوع الكلمة.
النور الحقيقي الآتي إلى العالم" (إبصالية على الهوس الأول ص ٢٢٢).

لأنه إذا لم يشرق فينا نور إلوهية الرب، فما هي جدوى تجسد ابن الله؟

وعندما يقدم لبش على ثيئوطوكية يوم الاثنين الخليقة الأولى يقول:

"في البدء خلق الله السماء والأرض،

وكل زيناتها ..." (ص ٢٩٠).

ثم يكمل شرح قصة الخلق في نور إنجيل يسوع المسيح:

"وقد خلق النور السماوي في يوم الرب،

مع العناصر الأربعة" (ص ٢٩٠).

ولعلنا نلاحظ أن الترجمة العربية ترجمت "يوم الرب"، وهو الاسم القديم جداً ليوم قيامة الرب من الأموات، أي يوم القيامة إلى "يوم الأحد"[1]، لكن الأصل القبطي احتفظ بالاسم اليوناني القديم: ⲕⲩⲣⲓⲁⲕⲏ ⲛ̀ⲧ ⲡⲓⲉϩⲟⲟⲩ لأننا أخذنا نعمة قيامتنا في هذا اليوم، أي يوم القيامة. وهذا ما نراه عند القديس باسيليوس وهو يدون لنا التقليد الكنسي في كتاب الروح القدس (فصل ٢٧: ٦٦):

"نصلي وقوفاً في أول الأسبوع ... فاليوم الأول هو يوم الرب، أو يوم القيامة الذي نقوم فيه .. لأننا قمنا مع المسيح (كولوسي ٣: ١) بل أيضاً لأن يوم الرب هو صورة الحياة الأبدية، رغم أنه أول الأيام (الخليقة الأولى) إلاَّ أنه يُدعى في موسى ليس الأول بل يوماً واحداً ... (تك ١: ٥)، وهذا يعني أنه ليس الأول في الترتيب، بل الواحد الذي سوف يتكرر، ولذلك يدعى الثامن .. لأن اليوم الثامن كعلامة الحياة الآتية، هو اليوم الذي لا نهاية له لأنه بلا مساء وبلا غد، فهو الدهر الذي لا ينقضي ولا يشيخ" (ص ١٦٢ ترجمة د. جورج حبيب بباوي، وأعاد القديس باسيليوس نفس الشرح في شرح أيام الخليقة Hexaemeron في العظة الثالثة).

لاهوت لا يُقسِّم بل يُوحِّد:

عندما سمعت ثم قرأت في عناية "لبش شهر كيهك" تيقنت أن لاهوت التقسيم لا يصنع صلاةً ولا علاقةً ولا ينشئ "تسبيحاً"

"قد طرح موسى عصا من خشب في البحر الأحمر

---

(١) ليتنا نُسقط اسم يوم الأحد ونعود إلى الاسم القديم "يوم الرب"؛ حتى تبقى ذاكرتنا ووعينا في نور الإنجيل.

فانشقت المياه

رمز لنا بها على خشبة الصليب

التي صلبوا ربي عليها. آدم الثاني".

عصا موسى كرمز للصليب معروف لنا من رسالة برنابا من مصنفات القرون الأولى، نسبت للرسول برنابا – وربما هذا صحيح – ولكن تطور ونمو الرموز في الرسالة جعل البعض يؤكد أنها من كتابات العصر الثاني المسيحي، ومكانها الصحيح هو الاسكندرية حيث نشأت مدرسة التأويل الرمزي أولاً على يد فيلون السكندري، ثم وصلت إلى أكبر درجات النمو على يد العلامة أوريجينوس الذي أكد في شرح نبوة حزقيال أنه أخذ الكثير من المعلم السكندري الذي علَّمه اللغة العبرانية.

ولدينا هنا نقطتين:

الأولى: هي كثافة الإشارة إلى سقوط آدم في كل أجزاء التسبيح في الابصلمودية الكيهكية، والثانية هي عودة آدم إلى الفردوس بسبب تجسد الابن الوحيد من القديسة مريم والدة الإله، ويصبح التجسد، أي اتخاذ ربنا الابن الكلمة الناسوت، محور التسبيح الدائم، وتصبح العذراء القديسة في أكثر من قطعة هي "عرش يسوع" (راجع على سبيل المثال ص ٢٦٤)، بل هي السماء الثانية على الأرض بسبب سكنى أقنوم الكلمة وحلول الروح القدس عليها.

وإزاء سقطة آدم تقول التسبحة، وهي خالية من كل مصطلحات القرن التاسع عشر" العقوبة – العضب الإلهي – العدل الذي ينتقم من الخطاة"، تقول عن طرد آدم في لبش آدام على ثيئوطوكية يوم الاثنين:

"وجعله كاهناً وملكاً ونبياً،

وسلَّطه على كل المسكونة".

ووضْعُ آدم مع الأنبياء وَرَدَ عند العلامة أكليمنضس السكندري؛ لأن آدم بروح النبوة قال عن حواء: "هذه لحم من لحمي وعظم من عظامي".

لكن أصبحت هذه الكلمات بعد إظهار مكانة آدم كملك وكاهن ونبي دعوة لنا لمراجعة ما رسخ من تعليم أوروبي وفد مع الإرساليات الإنجيلية، بل والكاثوليكية أيضاً

عن العقوبة الإلهية التي تملأ صفحات كتب قبطية دُوِّنَت بإيحاء الفكر الأوروبي. إذ يقول نفس اللبش الآدام:

"فخالف وصايا الله ..

وطرده بنعمة إلهية".

فالطرد من الفردوس كان حكماً إلهياً يعبِّر عن رحمة الله ومحبته. هذا إجماع الآباء الشرقيين، وحسب عبارة ثيئوفيلوس الأنطاكي (حوالي ١٩٠):

"وأعلن الله عطفاً عظيماً على الإنسان؛ لأنه لم يُرِد أن يعاني من البقاء في الخطية الى الأبد، ولكن بحكم طرده من الفردوس؛ صارت العقوبة بداية خلاص يتم في الزمان المعيَّن، لأنه بعد تأدب يعاد تجديده" (طوليكوس ٢: ٢٦).

ولا ينفرد ثيؤفيلوس الإنطاكي بذلك، بل هو أيضاً ما يؤكده القديس غريغوريوس النيسي في عظة عن الامبراطورة بولخاريا إذ يقول:

"ولكي لا يبقى الشر الذي فينا والذي ورثناه إلى الأبد، يعود الجسد بشكل مؤقت إلى تحت حفظ الموت، وتدبير العظيم للموت لكي يطرد الشر، ويتم إعادة تكوين الإنسان بعد فصل الشر عنه إلى الحياة الفائقة لأن الموت هو تطهير للشر".

(الآباء اليونانيين مجلد ٤٦: ٨٧٦ – ٨٧٧).

والطرد بنعمة إلهية هو ما يؤكده أيضاً القديس باسيليوس في العظة ٧ وعنوان هذه العظة "الله ليس هو مصدر الشرور" (راجع مجلد ٣١: ٣٤٥):

"لم يمنع الله انفصال النفس عن الجسد لكي لا يصبح المرض الذي فينا (الخطية) مرضاً أبدياً .. الله محب البشر يمنح من خلال الموت الدواء، فهو دواء وليس عقوبة؛ لأن الإنسان سقط في الخطية".

فالله يؤكد أنه محب البشر، وأن الموت هو دواء وليس عقوبة، فهو دواء يبيد الخطية، وحسب عبارة القديس كيرلس تصبح العقوبة خلاصاً (تجسد الرب فقرة ٦ مجلد ٧٥: ١٤٢٤ فقرة CD).

وتلك هي ذاتها عبارة القداس الغريغوري التي بسببها ذُبح د. هاني مينا ميخائيل ولا زال مذبوحاً –كواحد من شهداء عصر الأنبا شنودة الثالث – فقد طُرد من الكنيسة القبطية لأنه تجاسر ونشر ما سجله تراثنا القبطي[1]:

"حوَّلت لي العقوبةَ خلاصاً"؛

إذ يقول ذهبي الفم في العظة ١٨ على سفر التكوين (مجلد ٥٣: ١٥١):

"رَتَّبَ الموت لأجل منفعتنا".

وأعاد نفس العبارة في عظة على مزمور ١١٤: ٢ في السبعينية وهو مزمور ١١٦: ٧ – ٨ إذ يقول المزمور: "ارجعي يا نفسي إلى موضع راحتك لأن الرب قد أحسن إليك؛ لأنه قد أنقذ نفسي من الموت"، فيقول ذهبي الفم:

"مع أن الموت دخل الى العالم بسبب الخطية،

إلاَّ أن الله قد حوَّله لمصلحة (أو فائدة) الإنسانية".

وأعاد نفس العبارة في العظة ٣١: ٣ على إنجيل متى (مجلد ٥٧: ٣٧٤):

"أعطانا الله الموت لفائدتنا .. فلماذا النوح والبكاء؟

إذا كان يجب النوح والبكاء، فالوحيد الذي يجب أن يفعل هذا هو الشيطان. أمَّا نحن، فالشكر للموت؛ لأنه رحلة إلى ما هو أعظم فائدة؛ لأن الموت هو نياحة وميناء هادئ".

هكذا يأتي سقوط آدم وطرده بعد النعمة العظمى، لكن في الصلاة والتسبيح بدأ إشراق الحياة والنور في الابن الوحيد ومنه أي في تجسده، ولذلك يعود هذا المحور الأساسي إلينا في تسبحة نصف الليل عند تمجيد قيامة الرب يسوع:

"كل الأفراح تليق بك يا والدة الإله؛

لأن من قِبَلك رُدَّ آدم إلى الفردوس".

وهزيمة الجحيم هي أيضاً أحد مكونات التسبحة. ونحن نعترف بهذه الحقيقة في القداس الباسيلي:

---

(١) راجع في ذلك كتابه عن العدالة الإلهية، حياة لا موت، مغفرة لا عقوبة.

"نزل إلى الجحيم بواسطة (من قبل) الصليب".

ودراسة أشعار ما افرام السرياني وغيره من قدامى شعراء المسيحية أخذت الكثير من مكونات الليتورجية في الشرق والغرب معاً.

شق المسيح بحر الجحيم:

تراثنا في الصلوات والتسبيح الذي دُوِّنَ باللغة العربية ليس بالضرورة من إبداعات العصر الوسيط لأنه وصلنا باللغة العربية، ولم نعثر بعد على أصله القبطي. فما أكثر الشذرات الآبائية القديمة التي نرتِّلها في بعض "المدايح"، وهي تدل بشكل خاص على تواصلٍ مع تراث الكنيسة القبطية "أم الشهداء".

سمعت هذه الكلمات عندما كنت طالباً في القسم النهاري في الكلية الاكليريكية وقرأتها بنفسي عدة مرات فقد وردت حسب النسخة المحققة التي يجب أن يُعاد طبعها من جديد دون العبث بما فيها في الصفحات التالية:

"اعترفوا لإسم المسيح واشكروا فضله ورضاه
زيدوه بالتسبيح
خلصنا من إبليس. فرعون العقلي خزاه
وأجازنا بحر التقديس
أدخلنا بحر العماد (المعمودية)
وعتقنا من رق الطغيان
وأوصلنا أرض الميعاد
شق المسيح بحر الجحيم
ورمى الشيطان جواه
وأخرجنا منه بسر عظيم
وأصعدنا مع شعبه".

(مديحة على الهوس الثاني ص ٣٦٨).

بالطبع، قد يسأل العقل الذي لم يستنِر بروح الصلوات عن سبب استخدام هذا

الموضوع بالذات في تسبحة خُصِّصَت لتمجيد تجسد الله الكلمة؟

والجواب هو أن صلوات الكنيسة لا تعرف تقسيمات علم اللاهوت، بل هي اللاهوت بدون تقسيمات إلى ثالوث – خرستولوجي – ... الخ.

* تجسد الرب هو الاستعلان الذي يضع الأساس لكل شيء.

* هو الحدث العظيم الذي جلس فيه الله الكلمة على عرشٍ جديد، هو القديسة مريم، أي الإنسانية حيث يستريح الله في الإنسانية:

"سماء وعرش على الأرض؛
لأن الغير المحوي حويتيه،
وينبوعاً صالحاً غير موصوف
نبع منك".

(عشية – التفسير السابع من الرومي ص ١١٨).

وعندما يأتي الهوس الأول وفيه الاحتفال بالحرية من أرض العبودية؛ تنقل المديحة العربية ذات الموضوع على ثيئوطوكية يوم الاثنين:

"هزم العدو بجسده
الشيطان سحقه القدوس
أنقذ صنعة يده
ورِق العبودية
الذي كان لنا مخصوص،
محاه بالكلية".

(مديح آدام ثالث على ثيؤطوكية يوم الاثنين ص ٢٧٧).

لكن ذلك لم يحدث بالصلب فقط، لأن لاهوت التقسيم لا يصنع صلاةً ولا علاقة ولا ينشئ "تسبيحاً" ولاحظ كيف تعود ثيئوطوكية يوم الاثنين إلى تجسد ابن الله الكلمة:

"السلام لبيت لحم مدينة الانبياء
التي ولد فيها المسيح،

آدم الثاني".

وميلاد آدم الثاني في الصلاة والتسبيح لا يقف عند الميلاد، فهذه نظرة الجيل المعاصر لنا، ولكن فوراً يولد آدم الثاني

"لكي يرد آدم. الرجل (الإنسان) الأول
الذي من التراب
إلى الفردوس".

لكن ذلك لا يحدث بمجرد تجسد الرب، بل يجب أن

"ويحل حكم الموت.
إذ قال يا آدم إنك من تراب
وإلى التراب تعود".

وتغلب الصلاة النظرة العقابية المعاصرة؛ إذ تضع في قلب المصلي:

"لأنه حيث كثرت الخطية فهناك تزايدت نعمة المسيح".

ويرد الشعب:

"أشرق متجسداً من العذراء
بغير زرع بشر لكي يخلصنا".

والمصالحة ومسرة الله في بني الانسان ليست فكرة تُقال في عظة؛ لأن الثيئوطوكية تقول بعد ذلك "المجد لله في الأعالي ..."

"لأنه نقض الحاجز المتوسط
وقتل العداوة بالكمال
ومزق كتاب يد العبودية
الذي لآدم وحواء
وصيرهما أحراراً
الذي ولد لنا في مدينة داود كقول الملاك".

(ثيؤطوكية الاثنين – القطعة الثامنة).

لقد أُسِّسَت المصالحة إذن بتجسد ابن الله.

تكريم والدة الإله:

هو تمجيد وتكريم يدخل الصلوات والتسبيح. والذين أسرتهم الدعاية المضادة لتراث الكنيسة وسقطوا في فخ الشيع يقولون عنها هي إنسان مثلنا. نعم، هذا حق، ولكن فصل المسيح الرب عن الأم يفصل في النهاية المسيح نفسه عن الإنسانية. وسيادة المنهج الفردي يحذف شركة الكنيسة. نحن في الكنيسة مع مريم ومع الملائكة والشهداء لأننا **جميعاً** في حضرة الثالوث القدوس.

هذه الشركة السمائية هي سر هذا التمجيد؛ لأننا لسنا مجرد شهود، بل نحن شركاء السر، سر اجتماعنا بالثالوث وشركتنا في حياة الثالوث. وكل من يتأمل التجسد يدرك أن قوة تجسد ابن الله تشمله لأن القديسة مريم هي:

"إكليل فخرنا ورأس Ⲧⲁ ⲡⲁ̀ⲣⲭⲏ
خلاصنا" (ص ٧٠٥).

نحن معها في ذات الشركة؛ لأن

"الكائن في النور
الغير المقترب منه
صار في بطنك تسعة شهور".
(ابصالية آدام ص ٣٠٧)

لأن المسيح الذي حل في العذراء (ص ٣١٠) هو ذاته سوف يحل في قلوب المؤمنين لا لكي يولد من جديد، بل لكي نولد نحن من جديد ميلاداً روحياً لأنه:

"بعد تأنسه هو الله أيضاً
نمجده كما يليق
لأنه هو إلهنا" (ص ٣١٠).

لأن الله تجسد منك "بجسد عاقل" تعبير وجدناه عند القديس اثناسيوس الرسولي لأن الجسد العاقل هو جسد الكلمة ⲛⲟⲩⲥⲁⲣⲝ ⲛ̀ⲗⲟⲍⲓⲕⲏ (ص ٢٢٣).

"إننا من الأرض وفي آدم نموت. هكذا نولد من فوق من الماء والروح؛
لأننا في المسيح نُحيا جميعاً. فلا يعود الجسد فيما بعد أرضياً، بل

يصير عاقلاً أو ناطقاً مثل جسد الكلمة" (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣).

هكذا يدرك المصلي أنه لا يقف بعيداً عن نار عرش اللاهوت أو غريباً، بل هو في ذات الشركة التي استُعلِنَت في القديسة مريم، وتعطى في السرائر، ونمجد الثالوث عليها في الصلاة الليتورجية.

أحفظ لنا يا رب ميراثنا السماوي مع الآباء الذين عشنا معهم:

البابا كيرلس السادس،

وأساتذتنا الأجلاء:

الأنبا غريغوريوس – د. وهيب جورجي – د. رشدي حنا

القمص صليب سوريال – الشهيد الأنبا صموئيل

الأنبا يوأنس أسقفنا – الأنبا ديوسقوروس

القمص ميخائيل إبراهيم – القمص متى المسكين

الراهب فليمون المقاري – القمص يعقوب فرج

القمص أقلاديوس جرجس – القمص انطونيوس أمين.

د. جورج حبيب بباوي